عالمية اللغة العربية

رهن بقوة العرب في الحقل الدولي

الازدواجية إنما هي دعم للتوازي العلمي

الأستاذ فؤاد الشايب

(دمشق)

تعترض سير اللغة العربية ، وتحد من انتشارها ثلاثة حوائل ، يؤلف كل منها قضية قائمة بذاتها ، ومترابطا بعضها ببعض ، في الوقت نفسه .

اولا ــ الحرف العربي :

ان رسم الحرف العربي وان يكن يؤلف حائلا جديا ؛ دون بلوغ اللغة العربية مستوياتها العالمية ، وجماهيرها الواسعة ، فان قضيته ليست بالمعضلة التي يمكن ان نجد لها حلولا سريعة تافهة كأن نعدل عن الحرف العربي ، الى الحرف اللاتيني ، كما فعلت (تركية اتاتورك) ، او كما يقترح بعض المتحذلقة العرب ، ممن يظنون انهم قد وجدوا الثغرة من جانب الحرف ، للعبث بالتراث العربي ، بدءا من الالف حتى الياء وللترك ولسواهم ان (يلتنوا) حروفهم فهم ليسوا شيئا من تراثنا .

وقد كتب كثيرون في استحالة (تلتين) الحرف العربي من جهة ، وعدم جدواه من جهة ثانية ، بقطع النظر عن القضية القومية بالذات ، ولست انوي هنا ان اكرر ما قيل وحسبي القول أن الدعوة اللاتينية ، هي تزوير لطرح القضية ، وقد بادت الدعوة ، كما باد سواها من الدعوات الشعوبية والاستعمارية المعادية لحقيقة الوجود العربي .

ثانيا ــ سلطان الدولة :

ان القيمة السياسية لسلطان الدولة ، قضية قومية عربية تعكس ظلالها على واقعنا الثقافي ، ومنذ اقدم الازمنة ، اقترنت امجاد اللغات بامجاد دولها وانطفأت لغات ولهجات بانطفاء الجماعات التي قامت عليها ونطقت بها ، ونحن ادرى الاقوام كيف دانت للغتنا العربية شعوب الروم والفرس ، فكتب فحولهم بالعربية وخلدوا بها في تاريخ الفكر العربي في ظلال مجد الدولة وقوة السلطان واليوم لا يخفى على احد كيف انتشرت الفرنسية والانكليزية بين الملايين في افريقيا وآسيا ، واللغة الروسية بين الملايين في اوربا الوسطى والشرقية.

وعندما تكون اللغة العربية لغة الدولة العربية الكبرى ذات مئة المليون ــ نستطيع ان نتصور الكثير والقليل عن مدى ازدهار اللغة وراء سيادة الدولة ــ وعالميتها .

ثالثا ــ المستوى الثقافي :

تؤلف قضية المستوى الثقافي في مجتمعنا العربي ، مشكلة اساسية ، اقل القول فيها انها هي التي تقرر مسيرة اللغة ، ومصيرها معا فالمجتمعات التي لا يؤلف فيها جمهورها وعيا ثقافيا معينا ، تتضاءل فيها الحاجة الى لغة غنية معاصرة لحاجات الانسان ، وينحدر فيها الانتاج الفكري الى مستوى التفاهات ، ويساوم عليه مع خسيس البضاعات ، وفي هذه المجتمعات لا كرامة لمفكر ، ولا رزق ايضا ، وتنعدم الحاجة الى اللغة ، بانعدام الحافز الى التقدم ، والحاجة الى المعاصرة فاللغة القابعة في عقر دارها ، هي قرينة الفكر الضامر في اطماره، وطبيعي ان اللغة التي لا تبارح دائرتها الصغيرة ، لا تستطيع ان تخطو في العالم الخارجي، خطوات كثيرة او قليلة .

ان معضلة اللغة في هذه المجتمعات لا يمكن ان تطرح منفصلة عن مادتها الغذائية ، فاللغة لسان الحياة والحاجة ورباط بينهما معا ، فاذا كانت

الحياة تافهة والحاجة مقصورة على البدائيات ، انعدم الشعور بضرورة تعزيز الرباط بين الحياة والمجتمع ، وتصبح عشرات الكلمات كافية للتداول بديلا عن الالوف .

ففي معالجة مشكلات هذا المستوى الثقافي المتدني ، لا يطرح السؤال : هل اللغة العربية ، متخلفة عن الركب العصري ؛ بل السؤال : هل اهل اللغة انفسهم هم المتخلفون ؛ فالمعضلة ، وحلولها ليست في اللغة بل في القوم الذين يتداولونها ، انها قضية (اجتماعية ثقافية) في المقام الاول ويجب أن نعالجها ليس على اساس انها تركيب حروف ، بل **تكييف شروط اجتماعية انسانية** ، في مكان ما وزمان ما .

وعلى هذا فان معالجة مشكلة اللغة العربية ، ليست بالحصر معالجة اكاديمية ينصرف اليها العلماء والاختصاصيون ، وناحتو الالفاظ ، وناجروا اشكال الحروف ، وان تكن الاكاديمية هنا عملية تقنية ، لابد منها في مرحلة الصياغة والتنظيم والتنسيق .

فاذا قلنا مثلا ان انفتاح الحياة الاجتماعية على حاجات العصر ، وفروض التقدم وتيارات الفكر العالمي ، وان تشجيع الروح العلمية ، وتكريم اهل العلم ، وتيسير نشر الثقافة العامة ، من اسباب اعداد المجتمع وتأهيله لتداول لغة غنية متوسعة ، نقول ايضا ان البدء من القاعدة في مكافحة الامية ، — على مستوى القراءة ، وعلى مستوى التفكير ايضا — سبب رئيسي ايضا من اسباب تكوين الوعي الاجتماعي الثقافي الذي يستطيع أن يحتضن العلماء والمثقفين ، وينهض بهم ، ويحتمل على صعيده وجودهم .. ليعيشوا قادة معه ، لا عالة عليه .

فالقضية هنا حلقات مترابطة من تعليم الامي ، الى تجهيز العالم الاكاديمي ، الى فتح قابلية الجماهير لبذور الوعي الثقافي ، ولرفض شروط الحياة المتخلفة .

اما جوابي عن الاسئلة الثلاثة الاخيرة فخلاصته فيما يلي :

يبدو ان لا خلاف بين الباحثين المعنيين بالموضوع — وقد استفتت مجلة (المعرفة) في دمشق عددا منهم — حول حقيقتين اساسيتين ، تتفرع عنهما تفاصيل كثيرة :

الاولى ان اللغة العربية صالحة للتدريس العلمي الجامعي ، ويجب أن تستمر العناية بها لتصبح اكثر صلاحا في المستقبل .

والثانية ان لا غنى للمتعلمين وطالبي المزيد من العلم ، عن التثقف بلغة عالمية اساسية يتابعون بها ثقافتهم التي تؤهلهم لمعاصرة كل مستطرف مستحدث ، وليس ذلك من اجل اغناء ثقافتهم مسلكيا وفكريا فحسب ، بل من اجل دفع اللغة العربية عن طريق اهلها من العلماء ، لتسير ابدا على الخط الموازي للتقدم العلمي في العالم .

ففي مدى الحقيقة الاولى اؤكد ان اللغة العربية التي استوعبت في عصرها الذهبي علوم الاولين والآخرين ، غير عاجزة عن مثل هذا في عصرنا الراهن، ما استطاع اهلها الى ذلك سبيلا ، ولا ضير عليها من الانفتاح الكبير ولا خطر ، الا من طرفي التحذلق ، والتزمت على السواء .

وان هي صلحت الآن ، للتدريس العلمي ، واستيعاب العلوم الانسانية المختلفة ، فيجب أن يستمر هذا الصلاح بمجهود عربي مشترك تنهض له مؤسسات علمية وعلماء وادباء ورجال تفرغ واختصاص ، وفي مواضيع العلوم المادية الاكثر امتناعا على اللغة كعلوم الطب والهندسة ، والكيمياء وسواها .

فلا يكفي أن تكون كلية الطب في دمشق — مثلا — قد عمدت الى تدريس الطب بالعربية منذ اربعين عاما . اذ يجب ان تتفاهم الجامعات العربية اينما كانت وتتعاون فيما بينها على تنفيذ منهج مقرر في تدريس العلوم ، بلغة علمية لا تترك مصطلحاتها لاختيار الاذواق الخاصة والاقاليم المحلية ، والمجهودات الفردية ، بل أن تنهض لها مؤسسة عربية كبرى ، تشرف على تنظيم اشتراك الجامعات العربية كلها في ايجاد المصطلح العلمي الملائم وفي استعماله معا .

وقد وضع صيغة اقتراح مماثل منذ عام 1945 — العلامة الاستاذ مصطفى الشهابي ، رئيس المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، فطالب بتآزر مجمع اللغة العربية في القاهرة مع جامعة الدول العربية بالاضافة الى اسهام رهط من العلماء والادباء المتفرغين للمهمة الثقافية القومية ، فيتألف من هذه الجهات تنظيم يشبه (لجنة عليا) ذات صلاحيات وطاقات مادية كافية ، تشرف على اخراج (معجم للمصطلحات العلمية) ، يطبع ويوزع بمساعدة

الحكومات العربية وتهيأ له اسباب الانتشار الواسع ويتجدد بين الحين والحين ، بالاضافات والتعديلات ، شأنه شأن أي عمل انسيكلوبيدي ، ويكون مرجعا يقتضي الالتزام به ، دون ان يغلق الباب امام نقده وتعديله .

وفى مدى الحقيقة الثانية فثمة اجماع ايضا على ضرورة اعداد الطالب العربي فى مرحلتي التدريس الاعدادية ، والجامعية ، اعدادا لائقا لتلقي العلوم باحدى اللغات العالمية الانتشار ، وان هذا الاعداد الثقافي للطالب العربي ، يجب ان يتوازى مع خط تدريس العلوم باللغة العربية ، ليتبادل الخطان باستمرار شرارات الاشتعال ، حتى يأتي اليوم الذي تصبح فيه اللغة العربية ، لغة علمية واسعة لا تنازع فى صلاحها ، تستطيع ان تأخذ كما تستطيع ان تعطي انما يجيء هذا الامر بالتدريج ، وبالتطور الذي ينمي اللغة ، وينمي طاقات المجتمع المتخلف معا.. ولا فضل ابدا بين اللغة والمجتمع فى محاولات العلماء والمصلحين ، ساسة وقادة الفكر ورجال علم .

واما ملاحظاتي الخاصة حول ما اوجزت من آراء الباحثين ، فجماعها :

أولا : يجب الشروع على الفور فى انشاء مجلات علمية اختصاصية ، باللغة العربية ، تدعم (الكتاب الجامعي) ، و(معجم المصطلحات) ايضا وتجعل معاصرة العلم شأنا يوميا من شؤون الكثرة من المتعلمين ، ولعل هذه الهيئة العليا المنوط بها امر اللغة العلمية — لجنة ام مجلسا — تصلح أن تقوم بنفسها ، او توصي الحكومات لاصدار هذه المجلات العلمية الميسرة امام جمهور المثقفين والمتعلمين بأدنى الاسعار ، ان الافراد والهيئات الخاصة كما هو معلوم لدينا عاجزون عن القيام بمثل هذه الاعمال النشرية ، ذات التكاليف الكبيرة ، والجمهور المحدود وسهم الدولة العربية فى هذا المشروع سهم رئيسي كلي .

ثانيا — يجب أن تكثر وتتعدد فى نطاق الوطن العربي والمهاجر ، والاوطان الآسيوية الافريقية التي تعنى باللغة العربية وتحتفي بها ، مكاتب الجامعة العربية لتنسيق التعريب ، أو مراسلون فى بعض الامكنة يحلون محل المكاتب ، على ان يكون التراسل بين هذه المكاتب مستمرا وفعالا ، بالمراسلة أو بطريق عقد المؤتمرات وايفاد الوفود هيئات وافرادا حتى تصبح هذه المكاتب وسائل فعالة لنقل تيارات التعريب والتنسيق الى الجهاز الاعلى المركزي ، المفروض انه هو الذي يعد العدة لوضع معجم المصطلحات ، فاذا تواصل مكتب تنسيق فى الرباط ، مع آخر فى دكار ، وآخر فى سان باولو ، وآخر فى دمشق ، مثلا للتفاهم حول وضع مصطلح ، وتم الاتفاق بأي سبب من اسباب تبادل الراي ، كان من ذلك حصاد ثمين يوضع امام اللجنة العليا الناظمة ، واذا حصل خلاف رفع الامر الى المرجع اياه ، ليتوافر عليه باحثون ورجال اختصاص ، للحكم المرجح .

ثالثا — يجب اشراك الادباء جنبا الى جنب مع العلماء وفقهاء اللغة وعلماء الاجتماع واصحاب الخبرات ، فى تقرير المصطلح العلمي ، على نطاق الوحدات الصغيرة ، والوحدة الرئيسية العليا ، اذ من المفروغ منه ان ادباء كل امة ، قصاصين ، وشعراء ونقادا ، وباحثين اجتماعيين ، وصحافيين ، قد اسهموا اسهاما رائعا بوعي منهم ، او بلا وعي ، وهم يمارسون تجاربهم الفنية بلغة قومهم فى تطوير اللغة وتيسيرها وتطعيمها ، ومنحها تلك الطواعية، والعفوية والليونة فى استعمال الالفاظ والمصطلحات ، انما الاديب الحق ، من احب لغته وفهمها ، وجبل ترابها بتراب ذاته ، وابدع بها غاية ما فى طاقة اللغة من ابداع ، ولهذا يجب ان تكون آثار الادباء مراجع لدرس تطور اللغة واستعمال مصطلحاتها وتداولها .

رابعا — واخيرا فلي كلمة انهيها بكثير من الصراحة لاقول ان المنظمات الرئيسية والفرعية ، على نطاق الحكومات ، والجامعة العربية ، ومكاتب التنسيق ، وسواها ، ومن يوكل اليهم شأن من شؤون اللغة افرادا وهيئات ، يجب ان تخلو من احد اثنين من حاشري انفسهم فى معركة تطوير اللغة وهما : المتحذلق والمتزمت :

فالمتظرف بالثقافة ، المغرور بها ، الذي بلغ به العلم حد اقتلاع جذوره من مجتمعه وبيئته — واقل أوصافه انه متحذلق — قد يزعم ان العلم لغة انسانية عالمية ، لا وطن لها ولا ضرورة لاحاطتها باطار قومي ، لان العلم لاسرته الشاملة ولانسانيته المطلقة، واقل ما نجابه به هذا الدعي المتحذلق ، هو التأكيد بأن تطور العلم ، وما احرزه من توسع وتعمق انما بلغ ما بلغه بمشاركة جميع الاقوام ، قديمها وحديثها، وبلغاتها نفسها ، وكانت التي تعطي العلم تعطي لغتها معه ، وقد أعطى العرب ، نجوما تسبح فى

الافلاك اسماء لا يزال العالم حتى اليوم ينطق بها ، وسيظل ينطق الى الابد ، دون ضير ولا غضاضة .

اما من يجهل او يتجاهل لغة قومه ، ليتقن لغة اجنبية ، يتذرع بها فى ما يسميه ولاءه لانسانية العلم ، ضد لغته وقومه ، فلا اقل من القول بانه انسان ناقص العلم والانسانية معا .

اما المتزمت الذي يطيب له أن يسخر من العقل والعصر والناس ، ليزعم ان ما من مصطلح علمي ، الا ويوجد لفظه المناسب بالعربية ، او انه بالاصل عربي قح .. لانه منقول عن كذا ، ومحرف عن كذا — هذا المتزمت يجب ان يكون احد اثنين : اما جاهلا لا يحق له الانتساب الى العلم ، وحسبه منه التقعر والدعوة والحمية الباطلة ، او متواطئا على حشر اللغة العربية فى نطاق حديذي ، لا تتعداه الى العالم الخارجي الا راسفة فى اغلال ثقيلة قاتلة ، **والمبيت للغة شرا هو من اراد ان يفقر مضمونها اللغوي والثقافي ، لكي تموت موتا تلقائيا بسوء التغذية** . وان تكن سياسته اللغوية مقصورة على المصلحين ، فهو قائل حق يريد به باطلا .

حتى فى احسن حالات الظن به والاشفاق عليه، فهو ليس اكثر من زوج مسكين يقتل زوجه حبا بها وغيرة عليها .

واخيرا لقد آن اوان العمل ، بعد ان تجمع حول المسألة راي عام مثقف على نطاق عربي ، يطالب بانشاء مؤسسة عليا ، فى مركزها وفروعها ، فى مكاتبها ومراسليها ، لتنشيط حركة التعريب وتنسيقها ، وضبطها والتأليف فيها وآن للدول العربية أن تدرك خطورة هذه الدعوة لتعزيز رابطة الروابط القومية فيما بينها ، وتأكيد عزمها على الخروج فعلا من نطاق المجتمعات المتخلفة .